

عن المفارقة *

جيل دولوز

ترجمة : ادريس كثير

لا نتخلص من المفارقة بالقول إنها قميئة بلويس كارول (1) أكثر مما هي كذلك بالنسبة "لمبادئ الرياضيات". هو جيد بالنسبة للويس كارول هو كذلك بالنسبة للمنطق . كما لا نتخلص منها بتأكيدنا أن حلاق الفيلق لا وجود له أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة للمجموعة غير العادية . ذلك أن المفارقة في المقابل، تلح داخل اللغة ولا تمل من الإلحاح، والمشكل إذن هو أن نرنو إلى معرفة ما إذا كانت اللغة ذاتها قادرة على الأداء دون إلحاح هذه الكائنات . ولن نقول بأن المفارقة تمنح صورة خاطئة عن الفكر، صورة غير صادقة و معقدة بلا فائدة، يجب أن يكون المرء ساذجا للاعتقاد بأن الفكر فعل "بسيط" واضح لذاته، لا يستنهكل القوى اللاشعورية، وكل اللامعني في اللاشعور . فالمفارقة لا تبدو لها إذا نظرنا إليها كمبادرات للفكر، و هي ليست كذلك إذا ما اعتبرناها قوى للفكر، لا يكشف إلا عما يمكن أن يكون موضوع تفكير، و موضوع حديث، وما لا يمكن التعبير عنه أو التفكير فيه أيضا، فراغ ذهني، أيون (الزمن). سوف لا نثير أخيرا الطابع التناقضي لهذه الكيانات، ولا نقول باستحالة انتماء الحلاق إلى الفيلق الخ ... إن قوة المفارقة تكمن في كونها ليست تناقضية، بل تجعلنا نعيش تكون التناقض . ذلك أن مبدأ التناقض يطبق على الواقع وعلى الممكن، لا على المستحيل الذي ينبثق عنه، أي عن المفارقات، أو بالأحرى عما يمثل المفارقات.

تتكون مفارقات الدلالة أساسا من المجموعة غير العادية التي تفهم كعنصر أو تضم عناصر من مختلف الأنواع) ومن العنصر المتمرد الذي يكون جزءا من مجموعة يفترض وجودها وينتمي إلى مجموعتيها الصغيرتين اللتين يحددهما . أما مفارقات المعنى فهي أساسا تقسيمات لانتهائية (دائما في صيغة الماضي والمستقبل، وليس الحاضر أبدا) وتوزيع رحال (التوزيع في فضاء مفتوح بدل توزيع فضاء مغلق) لكن المفارقة ، على كل حال، طابع يدفعها على السير في اتجاهين في آن واحد، وجعل كل

تماما مستحيلا، مركزة تارة على تأثيراتها هاته وتسارة على تأثيراتها الأخرى : هذه هي المغامرة المضاعفة لأليس (2) والصيرورة الخرقاء والإسم الضائع. ذلك أن المفارقة تتعارض والرأي، كما تتعارض وسمتين للرأي هما الحس السليم، والحس المشترك . والحال أن الحس السليم يقال على الاتجاه السليم : فهو اتجاه واحد، يعبر عن ضرورة نظام من خلاله يجب احتيــــــــــــــــار الاتجاه والتشبيث به بهذا الاتجاه يمكن تحديده بسهولة، كذلك الذي ينطلق من الأمور الأكثر اختلافا إلى تلك الأقل اختلافا، من مراعاة الظروف إلى التضحية . ونوجه حسب هذا الاتجاه، عقارب الزمن ، لأن الأكثر اختلافا يبدو بالضرورة كالماضي ما دام هو الذي يحدد أصل النظام الفردي، والأقل اختلافا يبدو كمستقبل وكغاية . نظام الزمن هذا، من الماضي إلى المستقبل تم تأسيسه إذن انطلاقا من الحاضر، أي انطلاقا من مرحلة محددة للزمن الذي تم اختياره من النظام الفردي المعين .

هكذا يحدد الحس السليم شروطه التي من خلالها يؤدي وظيفته والتي تنحصر أساسا في التنبؤ : من الواضح أن هذا الأخير سيكون مستحيلا في الاتجاه الآخر، إذا ما انطلقنا من الأقل اختلافا إلى الأكثر اختلافا (مثلا في الحرارة). نعثر على الحس السليم في مجال دينامية الحرارة . الحس السليم يمتاز أساسا بتزعة توزيعية، شعاره هو : من جهة..ومن جهة أخرى . "لكن التوزيع، يتم في ظروف تجعل للماخف دوما في البداية، مندجما في حركة موهمة مفروض فيها أنما تملؤه وتعادله وتحذفه وتعوضه . هذا هو مضمون صيغة بمن جهة، مراعاة الظروف .. إلى التضحية من جهة أخرى، أو من جهة العوالم (الأنظمة الفردية) إلى جهة التوزيع كهذا، متضمن في الحس السليم، يتحدد حقا كتوزيع قار أو مقيم . جوهر الحس السليم هو أنه يمنح لذاته تميزا، يبسطه على طول خط النقاط العادية و المرتبة عليه، لكنها تتجنب هذا الجوهر وتذويه أو تخفف من حدته . الحس قابل للاحتراق وللهمضم . فهو فلاحي، لا ينفصم عن المشكل الزراعي، وعن نسيج الأرض، وكذا الاتصال بعملية تحفص الطبقات المتوسطة حيث تكون النصب متساوية ومتوازية . الينايبع الحية للحس السليم هي، الآلة البخارية، وتربية المواشي، ولكن أيضا الملكية و الطبقات : لا كأحداث انبثقت في مرحلة ما، وإنما كأمودج أبدي و لا كاستعارة بسيطة ولكن بطريقة تجمع كل معاني لفظي "ملكية" و "طبقات". إن الخصائص المميزة للحس السليم هي إذن تأكيد الاتجاه الواحد، تحديد هذا الاتجاه باعتباره ينطلق من الأكثر اختلافا، من المتفرد إلى المؤلف، من المتميز إلى العادي، توجيه عقارب الزمن من الماضي إلى المستقبل، للحاضر فيه دور موجه، ووظيفته هي التنبؤ، والتوزيع فيه من نوع مقيم، حيث كل الخصائص تتحدد للحس السليم دور قصي في تحديد الدلالة . لكن لا دور له في منح المعنى، وهذا لأن الحس السليم يأتي

دوما في المرتبة الثانية، لأن التوزيع القار الذي ينجزه يفترض توزيعا آخر، مثلما هو الأمر بالنسبة لمشكل المساحات المسيجة فهي تفترض فضاء حرا مفتوحا، غير محدود، منحدر تل أو ربوة . وإذن ، يكفي القول بأن المفارقة تتبع الاتجاه الآخر، عكس الحس السليم، تنتقل من الأقل اختلافا إلى الأكثر اختلافا، بزوة هي لهو للعقل فقط؟ لنأخذ أمثلة مشهورة، فمن الأكيد أن الحرارة إذا كانت تتحرك نحو كختلفة، وإذا كانت اللزوجة تتم بدفعات فإنه يستحيل علينا التنبؤ " . لماذا؟ لأن الأمور تتم في الاتجاه الآخر، سيكون هذا الآخر وحيدا أيضا . والحال أن الحس السليم، لا يكفي بتحديد الاتجاه الخاص للمعنى الوحيد، يحدد مبدأ المعنى الوحيد بصفة عامة، حتى ولو كان المبدأ، بعد تحديده، يرغمنا على اختيار هذا الاتجاه بدل ذلك . إن قوة المفارقة لا تقضي باتباع الاتجاه الآخر، إنما تبين لنا أن المعنى يأخذ الاتجاهين معا والبعدين معا . المقابل للحس السليم ليس هو الاتجاه الآخر، وهذا الأخير يشكل فقط راحة العقل وبادرتة المرحلة . لكن المفارقة كهوى تكشف عن استحالة فصل الاتجاهين، وعن استحالة تأسيس الاتجاه الوحيد، لا الاتجاه الوحيد لجدية الفكر ولا الاتجاه المعكوس للاستراحة والالعاب الصغيرة، إذا كانت اللزوجة تتم بدفعات فإنها ستنتزع كل متحرك من سكونه، لكن في اتجاه لا يمكن التنبؤ به . في أي اتجاه؟ تسأل أليس ليس للسؤال من جواب، لأن المعنى لا اتجاه له . ليس له من اتجاه سليم بل له الاتجاهان معا، ماض - مستقبل منقسم ومتصل بشكل لا نهائي. كان الفيزيائي بولترام يقول بأن عقارب الزمن المتحركة من الماضي إلى المستقبل، لا تصلح إلا في العوالم أو الأنظمة الفردية، لحاضر محدد في هذه الأنظمة، أما : "في الكون برمته فمن المستحيل تمييز اتجاهي الزمن، كما هو الأمر بالنسبة للفضاء، ليس هناك لا فوق ولا تحت، (أي لا علو ولا عمق). هذا يجلبنا إلى تعارض الأيون في الكرونوس . هذا الأخير هو الحاضر الذي يوجد بمفرده، والذي يجعل من الماضي والمستقبل بعديه التطبيين، بالشكل الذي نسير فيه دائما من الماضي إلى المستقبل، ولكن بالقدر الذي يتتابع فيه الحاضر في العوالم أو الأنظمة الجزئية . الأيون هو الماضي -المستقبل في تقسيمه النهائي للحظة المجردة، التي لا تنقسم في اتجاهين معا، متحاشية الحاضر كلية . ذلك لأنه لا وجود لأي حاضر في الكون كنسق لكل الانساق أو كمجموعة غير عادية . مقابل الخط الموجه للحاضر الذي يلائم كل نقطة خاصة يتلقاها في نسق فردي، هناك خط الأيون، الذي يقفز من تفرد إلى آخر، معيدا جمع كل الانساق، متبعا في ذلك كل أشكال التوزيع مع الرحالة حيث يتحول كل حدث إلى ماضي مضى أو مستقبل سيأتي، إلى زائد وناقص في آن واحد، البارحة وغدا في تقسيم يجعل هذه التحولات تتواصل فيما بينها.

أما في "الحس المشترك"¹ الحس هنا لا يشير إلى الاتجاه وإنما إلى العضو . نسميه مشتركاً لأنه عضو ووظيفة وقدرة على التعرف، تعود بالتعدد إلى صيغة الواحد عينه . للحس المشترك مهمة هي أن يتعرف على الأشياء ويعرفها كما هي، مهمة الحس السليم التنبؤ . ويقوم الحس المشترك، من الناحية الذاتية، بقدرات مختلفة للنفس، أو للأعضاء المتباينة للجسم، ويعود بها إلى وحدة قادرة على قول أنا : لفس الأنا الذي يدرك ويتخيل ويتذكر ويعرف الخ ..والذي يتنفس وينام ويمشي ويأكل ... لا يبدو أن اللغة ستكون ممكنة خارج ذات كهذه، تعبر عن نفسها وتتمظهر من خلالها، وتقول ما تفعل . موضوعياً يأخذ الحس المشترك التعدد المعطى ويعيده إلى وحدة شكل موضوع خاص أو إلى وحدة شكل عالم منفرد : إنه نفس الموضوع الذي أشاهده والذي ألامسه وأتذوقه وألمسه، هو عينه الذي أدركه وأتخيله وأتذكره . وفي نلعلم أنفس وأمشي، يقظاً أو نائماً، متحركاً من موضوع إلى آخر تبعاً لقوانين نظام معين، هنا أيضاً لا تكون اللغة ممكنة خارج هذه الهويات التي تشير إليها . بهذا نرى حقاً تكامل قوتي الحس السليم والحس المشترك لا يمكن للحس السليم أن يجدد أي بداية ولا نهاية ولا أي اتجاه، كما لا يمكنه أن يوزع أي تعدد إلى هويكل ذات ما، و إلى شكل موضوع أو عالم قائم باستمرار، تفترضه موجوداً من البداية إلى النهاية . وعكسياً سيقى شكل الهوية هذا في الحس المشترك فارغاً إذا لم يمر إلى لحظة قادرة على تحديده بهذا التعدد أو ذاك، مفترضين أنه يدوم الوقت الكافي لتسوية الأجزاء يجب تحديد الصفة وتقديرها، حملها وتحديد هويتها في نفس الآن . في هذا التكامل بين الحس السليم والحس المشترك يتنازر الأنا والعالم والله -الله كنهاية أخيرة للاتجاهات وكمبدأ قصى للهويات. لذلك فالمفارقة هي الانقلاب المتزامن لكل من الحس السليم والحس المشترك : فهي تبدو من جهة، كالاتجاهين الأذنين للصيرورة -الخرقاء، التي لا يمكن التنبؤ بها باتجاهها، ومن جهة أخرى كلاً معنى للهوية المفقودة، التي لا يمكن معرفتها ولا التعبير عنها . أليس هي الفتاة التي تسير في الاتجاهين معا: في بلاد العجائب هناك اتجاهان منقسمان وهي أيضاً الفتاة التي فقدت هويتها وهوية ا لأشياء والعالم : في "سيلفي وبرونو" (3) تتعارض بلاد الملائكة بالمكان العام والمشارك، حيث تفشل أليس في كل اختبارات الحس المشترك : اختبار وعي الذات كعضو، -من أنت؟ -اختبار إدراك الأشياء كتعرف عليها الخشب ينفلت من كل تحديد - اختبار الذاكرة كحفظ - كل شيء خاطئ من البداية حتى النهاية- اختبار الحلم كوحدة للعالم -حيث يتفكك كل نظام فردي لصالح عالم تشكل فيه عنصر في حلم شخص ما لا أحب أن أنتمي إلى حلم شخص آخر " كيف يبقى حس مشترك إذا فقدت الحس

السليم؟ تغدو اللغة مستحيلة، حين تفقد الذات المعبرة والموضوع المشار إليه، وتفقد — د التصنيف والخصائص الدالة حسب نظام محدد.

ومع ذلك هنا يتحدد المعنى، في هذه الجهة التي تسبق كل حس سليم وحس مشترك . هنا مع هوى المفارقة ترقى اللغة إلى قوتها العليا . ففيما وراء الحس السليم، تمثل ازدواجية لويس كارول الاتجاهين الإثنيين للصيرورة الحمقاء: في أليس نعث على بائع القبعات وأرنب مارس : كل واحد منهما يقطن في اتجاه، لكنهما لا ينفصلان، الواحد يندمج في الآخر إلى حد أننا نعثر عليهما معا في اتجاه واحد. يجب أن نكون إثنيين لنوصف بالحمق، لقد أصبحا أحققين يوم اغتالا الزمن "أي يوم حطما المقياس وحذا التوقف و الراحة اللذين يأتيان بالصفة لشيء قار، قتلا الحاضر الذي لم يعد بينهما إلا في الصورة النائمة للجرذ صديقهما المعذب والذي لا يستمر بينهما إلا في اللحظة المجردة، ساعة تناول الشاي، المنقسم إلى ماضٍ مستقبل، وإذا بهما لا يتوقفان عن تبادل مكانهما الآن، لكن لا يكون ذلك إلى وقت متقدم أو متأخر، في الاتجاهين، دون أن يتم ذلك في الوقت المحدد . في الجهة الأخرى للمرأة نعثر على صانع القبعات والأرنب كمرسولين، الواحد للذهاب والآخر للرجوع، الأول للبحث والثاني للإتيان بالخبر، تبعا للاتجاهين المتزامنين للأيون . زد على ذلك أن تويدليدوم وتويدليدي (4) يشهدان على استحالة التمييز بين الاتجاهين، وعلى لا نهائية تقسيم الاتجاهين في كل اتجاه على الطريق المنقسمة التي تشير إلى مترلهما . لكن بما أن الازدواجية تجعل كل قياس للصيرورة وكل توقف للصفة، إذن كل ممارسة للحس السليم مستحيلا، كذلك هومبيني (5) يمثل البساطة المثلى، إنه سيد الكلمات، مانح المعنى الذي يحطم أداء الحس المشترك، موزع الاختلافات بشكل يمنع رجوع الصفات القارة و الزمن المقيس إلى شيء محدد أو معروف : إنه الشخص الذي يندمج فيه الطول بالعنق وربطة العنق بوسط الجسم هفتقدا للحس المشترك وللأعضاء المختلفة، فهو في تفرد حركي و محير هومبيني دومبيني لا يتعرف على أليس، لأن كل مميز فيها يبدو له مأخوذا في المجموع العادي لعضو ما (العيون، الأنف، ^{الفتحة} إلى موطن مشترك في الوجه كما هو عند جميع الناس . لا شيء يبدأ ولا شيء ينتهي في تميز المفارقة، كل شيء يسير في اتجاه المستقبل والماضي في نفس الآن . وكما يقول هومبيني دومبيني لا يمكننا أن نكبر دوما في اتجاهين، لا يكبر الواحد إلا إذا تحجم الآخر، ليس هناك من مفاجأة إذا كانت المفارقة هي قوة اللاشعور : فهي تتم دائما فيما بين شقي الشعور، ضد الحس السليم أو وراشلعور أي ضد الحس المشترك . كان كريسيب (6) يجيب عن السؤال متى نفقد الشعور؟ أو متى تتكون لدينا كمية كبير تقوله من الأفضل التوقف عن العد، يجدر بنا أن ننام وغدا مدبرها حكيم .

يبدو أن كارنياد لم يدرك كنه الجواب حينما اعترض قائلاً : لما يستيقظكريسيب كل شيء سيب دأ من جديد وأن نفس السؤال سي طرح ثانية . فيعقب كريسيب موضحاً : يمكننا أن نحصل دائماً على الاتجاهين، التقليل من سقوط الشعر عندما يتكاثر ، أو نقصان بيد عندما تزيد الأخرى ، ذلك لأن الأمر يتعلق بمعرفة " لماذا في هذه اللحظة وليس في لحظة أخرى". لماذا يغير الماء من صفته عند حدود الدرجة الصفر؟" لم يوضع هذا السؤال بطريقة ما دام الصفر هنا مأخوذاً كنقطة عادية على سلم الحرارة. أما إذا أخذ كنقطة متميزة فلن يكون منفصلاً عن الحدث الذي يقع فيه، فهو صفر بالنسبة لتطبيقه على خط النقطة العادية، تلك التي ستأتي وتلك التي ذهبت سابقاً .

من الآن يمكننا اقتراح لائحة بتطور اللغة على السطح وإعطاء المعنى في حدود القضايا والأشياء. لائحة كهاته، تمثل التنظيم المسمى ثانويًا، الخاص باللغة فهي منشطة بالعنصر المفارق، أو بالنقطة الاتفاقية التي منحناها أسماء مضاعفة عدة . وإن مثلنا هذا العنصر كعنصر يذرع السلسلتين معا على السطح، أو كعنصر يرسم بين الإثنين خطاً مستقيماً للأيون، فالأمر سبان، فهو لا معنى ويعرف الصيغ الفعلية للامعنى . لكن وبما أن اللامعنى في علاقة داخلية وطيدة بالمعنى أيضاً فهو الذي يمنح المعنى لكل طرف من طرفي السلسلة :المواقع النسبية لهذه الحدود، الواحدة اتجاه الأخرى تتوقف على موقعها " المطلق" بالنسبة للمعنى هو دائماً نتيجة تتم في السلسلتين، بفعل الإلحاح الذي يسري فيها . لذا فالمعنى كما هو ملحوظ في الأيون، يملك هو الآخر وجهين يتناسبان مع الوجهين المتباينين للعنصر المفارق :الواحد موجه نحو السلسلة المحددة كدال والآخر موجه نحو السلسلة المحددة كمدلول. المعنى يلح في واحدة من السلسلة المحددة (القضايا) : إنه ما يعبر عنه في القضايا لكنه لا يختلط بها كقضايا يعبر عنها. ويمر المعنى إلى السلسلة الأخرى (حالة الأشياء) محمول حالة الأشياء لكنه لا يختلط بحالة الأشياء التي حمل عليها ولا بالأشياء والصفات التي تمسها، فما يسمح بتحديد هذه السلسلة كدال والأخرى كمدلول هما بالضبط هذان الوجهان للمعنى : الإلحاح وما وراء الوجود، وسمتا اللامعنى أو العنصر المفارق الذي ينبثق منهما، مربع فارغ أو موضوع فائض، مكان في السلسلة بدون صاحبه أو صاحب مكان بدون مكان في السلسلة الأخرى. لهذا السبب فالمعنى في حد ذاته يشكل موضوع مفارقات أساسية تأخذ صورة اللامعنى، لكن إعطاء المعنى لا يتم بدون تحديد لشروط الدلالة التي ستخضع لها حدود السلسلة، طالما افتقدت للمعنى في نظام ثالث يحملها إلى قوانين الإشارة والظهور الممكنة (الحس السليم و الحس المشترك) .لائحة الانتشار الكلي على السطح تلف نفسها مقرونة في كل نقاطها بمشاشة قصية و إصرارية.

هوامش :

* - Gilles Deleuze , éd Minit, 1969, pp . 92 - 100 : Logique du sens

1- Charles Lutwidge Dodgson المعروف بلويس كارول، أديب انجليزي ولد بدارييسبورغ و سنة

1832 وتوفي سنة 1889 بكليدفور، وكان أستاذا للرياضيات بأكسفورد. من مؤلفاته :

- أليس في بلاد العجائب (1865)

- من خلال المرايا (1871)

- قصيدته السخرة " اقتناص السنارك "

2- بطللة الرواية المشار إليها أعلاه

3- رواية للويس كارول

4- من أبطال الرواية أعلاه

5-6- من الفلاسفة الرواقيين .